تعريف بالكتاب

ظهر كتاب الأخلاق لسپنوزا ـ بعد وفاته ـ باسم « اثبات الأخلاق بالأدلة الهندسية » .

ETHICA ORDINE GEOMETRICO DEMONSTRATATA

وهو اسم مطابق لمسماه ، يدل على تفكير الفيلسوف وعلى طريقته فى عرض أفكاره وفى الوصول اليها ، فهو ـ بهذه الطريقة ـ يصل الى تعريف الخير والشر والفضيلة والرذيلة والحق والباطل ، كما يصل الى تعريف النقطة والخط والدائرة والمثلث والمربع وسائر الأشكال الهندسية والمعادلات الرياضية وقد بدأ كتابه على الأسلوب الرياضى بتعريف السبب والحد والمحدود والجوهر والعرض والصفة ، وانتهى منها الى تعريف المطلق غير المحدود الذى لا يحتاج الى سبب خارج منه لوجوده وهو الله ، فقال فى تعريفه « انه الكائن الذى لا حدود له اطلاقا ، أو بعبارة أخرى هو الجوهر المشتمل على صفات غير محدودة كل منها يدل على ماهية أبدية بلا بداية ولا نهاية » .. وقال ان وجود هذا الكائن ثابت بمجرد تعريفه ، لأن نفى قابلية الوجود عن مثل هذا الكائن الذى يتوقف على تحقيقه تحقيق كل وجود آخر هو محض سخافة أو حالة عقلية .

والاله على هذا التعريف محيط بكل شىء ، ومعرفته الكاملة هى غاية الخير المطلق ، وانما يظهر الشر من المعرفة الناقصة بالاله وبالوجود كله ، وهى معرفة الأجزاء المحدودة الناقصة دون الوصول منها الى الكل المحيط بجميع الأشياء .

والخير هو المعرفة اليقينية بما هو نافع وصالح لنا ، وهو لا يكون نافعا وصالحا لنا الا لأنه نافع وصالح للوجود فى جملته المحيطة بجميع الكائنات ، وانما يأتى الشر من العواطف والغرائز لأنها معرفة ناقصة لم تصل الى درجة الوضوح والجلاء ، وشأن الانسان فى هذه المعرفة الناقصة كشأن الحيوان الذى يشتهى ولا يدرى ما يشتهيه .

والتفرقة بين الحسن والقبيح انما هى تفرقة بين درجات المعرفة فى عقل الانسان ، فلا شقاء مع المعرفة الكاملة على قدر حظ الانسان من الكمال ، ومن كان يعرف حقا فهو لا يحزن ولا يرثى لمصاب نفسه ولا لمصاب غيره ، لأنه يعلم أن هذا الذى يحسبه مصابا هو الضرورة التى لا محيص منها ولا فائدة من الحزن عليها لأن هذا الحزن يمضى بنا فى وجهة مدابرة لوجهة الحكمة الالهية فى معارضها الأبدية .

وقد يسوء القارىء أن يرى هذا الفيلسوف الذى يتكلم عن الأخلاق منكرا على الانسان أن يرثى لمصاب غيره ، أى منكرا عليه شعور الشفقة وهو أكرم شعور تتحلى به الطبيعة الانسانية ، حيث يقول :

« ان الذى يعرف بحق أن كل شىء انما هو نظام مترتب على ضرورة الطبيعة الالهية ، وجار فى مجراه على السنن الأبدية ، المنتظمة ، لن يرى شيئا على الاطلاق خليقا بالكراهية أو الضحك أو السخرية أو خليقا بالأسف أو الرثاء . بل يجتهد بما فى وسع الفضيلة الانسانية أن يعمل حسنا كما يقول الناس ويغتبط بما يعمل . وينبغى أن يضاف الى هذا أن ذاك الذى يسهل انفعاله بمؤثرات الشفقة وتذرف عيناه الدمع لمصاب الآخرين كثيرا ما يفعل ما يندم عليه ، بعد ذلك . اذ نحن لا نستطيع أن نفعل شيئا باملاء العاطفة ونحن نعرف يقينا أنه حسن ، لأن هذا كسهولة الانخداع بالدموع الكاذبة » .

نقول ان القارىء قد يسوؤه أن يقرأ هذا الكلام عن فضيلة الشفقة ، ولكن الفيلسوف لا يلبث أن يتبع ذلك بقوله ان الانسان الذى لا يتحرك بعامل الشفقة ولا بعامل المعرفة الى معونة غيره يتجرد من صفة الانسانية .. فليس المطلوب اذن أنكار معونة المصاب الذى يستحق الاشفاق عليه ، ولكن المطلوب هو انكار الاشفاق بغير معرفة جلية ، وهو

انكار يشمل به سپنوزا كل عمل انسانى يفعله الانسان وهو لا يدرى وجه الخير فيه على حسب تعريفه للخير ، وتعريفه للخير كما تقدم العمل الذى نعرف يقينا أنه نافع وصالح لنا ، وان نفعه وصلاحه هو العمل النفع والصلاح التى تعم جميع الوجود ، وتعد من لنا مطابقان لسنن الله من عند الله .

أجل ذلك صادرة ويرى نقاد فلسفة سپنوزا فى الأخلاق أنه كان يستطيع أن يضع الحرية فى أخلاقه موضع الضرورة التي توهمنا أنه يلغى الارادة الانسانية لولا أنه أراد أن يطبق المفاهيم الرياضية على الأخلاق والأعمال ، فلولا ذلك لاستطاع أن يقول ان المعرفة سبيل الحرية وأن حرية الانسان أن يبلغ فيه مبلغ الخير على قدر معرفته ، وكلاهما لا ينتظر من الانسان . فلا فرق اذن بين وصف الانسان الكمال المطلق الذى يوصف به الاله بالاختيار الذى يناسبه ولكن الفرق بينهما بالمعرفة التى تناسبه ووصفه أنما يأتى من حرص الفيلسوف على تعريف الأخلاق بأسلوب التعريفات الرياضية .

وأيا كان رأى النقاد فى هذا المذهب من الأخلاق فالأمر الذى لا خلاف عليه أن صاحب المذهب كان مثلا من أرفع الأمثلة لما ينبغى أن يتحلى به الحكيم الفيلسوف من صدق الخلق وموافقة القول للعمل . فانه فضل الحرمان واستهدف للأذى واستخف بالموت وبالضنك فى المعيشة ايثارا للحقيقة التى تصورها وفاقا لتفكيره ، وعرض عليه رؤساء الدين والملة من أبناء قومه أن يجروا عليه الرزق الذى يرتضيه وأن ينقدوه ألف فلورين ذهبا على أن يكف عن الدعوة الى رأيه فلم يتردد فى رفض هذا الاغراء ، وقضى حياته يعمل فى اصلاح زجاج النظارات ويقنع بالرزق الكفاف ، منقطعا عن آله وذويه وعن المجتمع اليهودى والمسيحى معا بعد اعلان حرمانه ومقاطعته واتفاق رؤساء الديانتين على هذا الاعلان .

وفى اعتقادنا أن مذهب سپنوزا الذى يقول فيه بوجدة الوجود يخالف العقيدة الاسلامية ، كما يخالف العقيدتين اليهودية والمسيحية ، لأن الوجود الالهى المطلق عنده مرادف لوجود الكون أو وجود الطبيعة بما احتوته من المخلوقات ، ومعنى الارادة الكاملة عنده أنها محصول كل ارادة تتجمع منذ الأزل من هذه الصروف المتفرقة التى تصدر عن الخلائق العاقلة وغير العاقلة ، لأن كل ما يحصل — أزلا وأبدا — فانما يحصل بالله وفى الله وبتقدير محكم مبرم من قبل الله .

وهـذا الذى اتفق على انتقاده رجال الدين وفلاسفة الأخلاق القائلون بالحرية الانسانية أو بالتبعة التى يناط بها الثواب والعقاب أو يناط بها الثناء والملام .

ولكننا اذا وجب أن نذكر هذا المأخذ وجب أن نذكر معه أمرين يتوقف عليهما فهم بواعث الفيلسوف وفهم آرائه على السواء . فانه اعتمد هذه الطريقة الرياضية دفعا لطغيان الالحاد باسم هذه العلوم الرياضية بعد كشوف الفلك والجغرافية التى زلزلت عقائد القوم فى أعقاب القرون الوسطى وقسمت أبناء الغرب قسمين : أحدهما يمجد العلم الحديث ويعرض عن كل معرفة غير المعرفة اللاهوتية ، والآخر يمجد الدين ويعتبر أن حقائق المنطق والرياضة والمعرفة العلمية على الاجمال تجعل الالحاد ضربة لازب وتوجبه على المفكر الحديث الذى يدين بأمانة التفكير وصراحة الأخلاق . فوقع فى روع الفيلسوف أن يتخذ من التفكير المنطقى ـ الرياضى ـ سلاحا يدفع به هذا الالحاد الذى حسب دعاته أنه نتيجة لازمة لتطور الأفكار بعد عصور الظلمات .

هذا أمر لابد أن يذكر كلما ذكرت ظروف هذه الفلسفة الرياضية وذكرت مآخذ المؤمنين بالأديان الكتابية عليها .

أما الأمر الآخر فهو حقيقة القول بالضرورة فى مذهب سبنوزا ، فانه كما قدمنا قول دعاه اليه ايثار التعريفات الرياضية واعتماده على طريقتها فى استخلاص القضايا والمسلمات العقلية من مقدمات التعريف ولكن اقتران المعرفة عند هذا الفيلسوف بمعنى الخير كله ينفى عن الضرورة معنى المناقضة للارادة والمناقضة للتبعة والحرية . فلا فرق بين القول بأن المعرفة ضرورية وبين القول بأن هذه المعرفة الضرورية تؤدى الى الاختيار والعمل بالخير عن علم وتفضيل ، ولا نستغرب على هذا الاعتبار اذا علمنا أن الحكم بالالحاد لم يكن قضاء مفروغا منه بين الفلاسفة المؤمنين . فان فريقا من هؤلاء الفلاسفة لا يكفيهم أن يدحضوا عنه تهمة الالحاد ، بل يذهب بعضهم كما ذهب سكلير ماكر Schleier macher الى تلقيبه بالتقى الفاضل النشوان بالخمر الالهية ، ويتبعهم فى ذلك فئة كبيرة من أصحاب الفلسفات الحديثة ، حين يقسمون الفلاسفة الى فريق المفكرين وفريق المؤمنين أو الى فريق أنصار الالحاد وأنصار الدين .

عباس محمود العقاد

تعريف بالكتاب

قصة هكلبرى فن هى قصة طفل شريد نشأ فى « حياطة » أب سكير لم تكن له حياطة يتعهد بها طفله الصغير غير الضرب من حين الى حين لسبب أو لغير سبب ، وبذريعة يتذرع بها فى يوم من الأيام وبغير ذريعة على الاطلاق فى أكثر الأيام .

ويهرب الطفل بعد أن أعياه الصبرِ على هذه الحال فيعثر مع زميل له من الأطفال المشردين على صندوق مملوء بالذهب فى كهف لص آبق كان يقطع الطريق ولا يستقر فى مكان ، فيسلمان الصندوق الى القاضى الموكل بالأمانات ويودعه القاضى باسميهما ويجرى على كل منهما ريالا فى اليوم ، ثم يؤول أمر « هكل » الى سيدتين رحيمتين تشفقان عليه وترعيانه فى البيت والمدرسة لتعليمه وتهذيبه وانقاذه من صحبة السوء الذين تعلم منهم التدخين وهجر القول وقلة الصبر على معيشة الدار والمثابرة على عمل من الأعمال غير الأعمال الموقوتة التى يضطر اليها ليكسب من هنا وهناك ما يدفع به غائلة الجوع ، ولكن الطفل الذى ألف حياة التشرد يوازن بين المعيشة المكفية المنتظمة فى حضانة السيدتين وبين معيشة الضرب والتشرد فى حضانة أبيه فيوشك أن يفضل هذه على تلك لولا أنه فوجىء بظهور أبيه وعلم أنه يتعقبه ليعيده اليه ، فتوسل الى القاضى أن يضع يده على المال كله خوفا من اصرار أبيه على استعادته اليه طمعا فى المال ، بل خوفا من ملازمة أبيه وهو يملك المال الذى يسول له الافراط فى الشرب والعربدة والافراط فى الضرب والمطاردة ، ولكنه وقع فى قبضة أبيه على الرغم من هذه الحيطة ، وصبر على ملازمته ما استطاع لأنه أحس أنه لا يكرهه تلك الكراهية التى ظن أنها تقصيه

عنه يوم هرب منه ، ثم أعياه الصبر مرة أخرى فأوهم أباه أنه قتل وهو يطارد بعض الصيـــد ليكف عن طلبه ، وأفلت من الرقابة لأن الباحثين عنه صدقوا اشاعة قتله حتى اعتقدوا أن قاتله زنجى آبق كان يصحب هكل ويعينه على معيشته كما يستعين به حيثما استطاع .

وتتوالى حوادث الرواية بين أبطالها الذين جمعتهم جامعة التشرد وقلةالصبر على قيود المعيشة الاجتمـاعية ، وبين شركائهم فى بطولة الرواية ممن يمثلون المعيشة الاجتماعية على تقاليدها المصطلح عليها ، ويلقاهم أولئك المتشردون حيثما أتفق اللقاء فيعرض لنا المؤلف منهم عالما حافلا بأشتات الصورة تتآلفوتتنافر بين ألوان العرف الاجتماعى وألوان الحياة المشردة بعيدا من تقاليـــد العرف وبعيـــدا مـــن نفاقه ومظاهره فى وقت واحد ، وأعجب ما فى هذه الصور تبادل الولاء بين هكل والزنجى جيم العبد الآبق من سادته ، فان هكل قد درج فى بلاد الجنوب حيث يعتقد الناس أن ملكية العبيد حق مشروع كملكية المتاع والضياع ، وحيث يشعر الطفل الدارج على هذه العقيدة أن معاونته على تهريب عبد مملوك لسيد معروف جريمة كجريمة المعاونة على تهريب السارق والمحتال ، ولكن هذا الاعتقاد لا يمنع هكل ولا الزنجى الآبق أن تتصل بينهما سنة الولاء وأن يفكر هكل فى مساعدة صاحبه على افتداء نفســه بالمال ، ارضاء لضميره الذى لا يستريح الى الاكتفاء بمساعدته وتهريبه من مطارديه ، ويرينا المؤلف وهو يعرض لنا صور العرف وصور الخارجين عليه أن المتشرد قد يساعد نفسه كما يساعد صديقه فى الضيق عنـــد الحاجة التى لا يملك دفعها ، فيخفى الصديق صديقه الهـــارب ويبيح لنفسه أن يمد يده الى الطعام المسروق اذا عضه الجوع ولم يقدر على شرائه ، ولكنه فيما عدا هذه « الاباحات » الضرورية يجرى على الفطرة التى لا يشوبها رياء التقاليد كلما وجبت أمانة العهد ووجب التعفف عن الغدر والخيانة ، ولا تزال هذه الصور الانسانية تتلاقى وتفترق وتتشابك وتنفصل وتتراءى منها جوانب الخير الخالص فلا نراها كلها وقفا على

آداب العرف ولا نراها كلهـا وقفا على آداب المتحللين منه والخارجين عليه ، ولا يفوتنا أن نلمس بينها جميعا ما هو من وحى الانسانية الفطرية بفضائلها وعيوبها وما هو من وحى المجتمع بفضائله وعيوبه .

ولم تلبث هذه القصة الواسعة الآفاق أن تظهر لقرائها الأمريكيين حتى أصبحت من تراث الأدب الانجليزى فى كل مكان تقرأ فيه هـذه اللغة ، وتحقق المؤلف والناشرون من أنها عمل ناجح من الوجهة المالية نجاحه من الوجهـة الأدبيـة ، وقال المؤلف فى ترجمة حياته التى كتبها بقلمه أن الناشر : « أصاب التوفيق فى هكلبرى فن وأرسل الى تحويلا ماليا بمبلغ خمسة وأربعين ألف ريال وخمسمائة ريال ، ومنها خمسـة عشر ألف ريال حصتى من رأس المال » .

ثم قال بأسلوبه الفكاهى الذى لا يفارقه : « ومرة أخرى أحسست أننى ولدت مولدا جديدا لأن لى عددا من الولادات الجديدة لا تزيد عليه ولادات أحد من الأحياء ، ما عدا كرشناه ـ المشهور بتقمص روحه ـ فيما أحسب ! » .

وربما اختلف نقاد العصر فى استحسان نشر الرواية اليوم بعباراتها التى ظهرت بها قبل ثلاثة أرباع القرن (سنة ١٨٨٥) لاختلاف الأحوال الاجتماعية بين ذلك العهد وهذا العهد الحاضر ولكن الرأى الغالب هو الرأى الذى تحدث به أحد المتحاورين ـ بعد ـ اذ يقول ان القصة يقرأها الطفل فى العاشرة ويقرأها الرجل الناضج ويرجو هو أن تتفق له قراءتها اذا بلغ الثمانين .. فمهما يكن من تبدل الأحوال الاجتماعية بين أواخر القرن التاسع عشر ومنتصف هذا القرن العشرين فالأحوال الانسانيـة لا تتبدل فى أعمال الفنون الخالدة ، ومن تلك الأحوال الانسانية أن يعامل الزنجى معاملة انسان يبادل أصحابه الولاء ويبادلونه على شرعةالمساواة قبل أن يجترىء أحـد على اعلان ذلك باسم الشريعـة أو اسم الخلق الكريم .

ولقد خطر للكثيرين أن الفكاهة المضحكة التى تخللت الرواية وتخللت كتابات مارك توين فى جملتها هى سر نجاح هذه الرواية وسر نجاح غيرها

من كتبه وأقاصيصه ، ولكن الفكاهة المضحكة قلما يكتب لها البقاء ان لم تكن فى صميمها تعبيرا عن الطبيعة البشرية فى أعمق أعماقها . وكذلك كانت فكاهة مارك توين الضاحك المازح الذى يحسبه بعض نقاده امامامن أئمة التشاؤم . ويقول هو فى مقاله عن الانسان أنه ألعوبة بين أيدى المقادير ، بل يقول عن نفسه عند الكلام عن « نقطة التحول الحاسمة فى تاريخ حياته » انه لم يشتغل بالكتابة الا من قبيل المصادفة ، وان هربه من المستشفى وتعرضه لوباء الجدرى هو الذى أوحى الى أمه أن تدفع به الى المطبعة ليتعلم صف الحروف ويبتعد عن بيئة الأطفال الجامحين وعن أخطار العدوى باالأوبئة ومساوىء الأخلاق ويكاد يقول — من ثم — ان أهم ما يهمنا ويهم الناس من حياتنا انما هو لعبة من ألعاب المصادفة وتدبير لأغراض نريدها ولا يتم منها الا ما أرادته المقادير .

وعلى هذا نشعر بالفارق البعيد بين ضحك وضحك وبين فكاهة وفكاهة .

فان الفارق بعيد جدا بين ضحك تدعو اليه قلة الاهتمام بالأمور وضحك هو غاية الاهتمام بها وهو حيلة من لايعرف له حيلةأفضل منها. وقد رأينا الكاتب يقول قبل سطور أن ولادته الجديدة لا تفوقها ولادات حى آخر غير ولادات برهما التى تتاسخ بها أرواح الأحياء .. وهذه نكتة ساخرة وضحكة عابرة ، ولكنها اذا قيلت بعبارة أخرى فهى مرادفةتمام المرادفة لقوله انه قد عرف الموت عدة مرات .

وعلى هذا النحو عبر — سامحه الله — عن حياة الفلاح المصرى كما رآها قبل أكثر من خمسين سنة ، فانه كان يقول فى وصف رحلته النيلية أن الأيام كانت تجرى والسفينة واقفة فى مكانها ، لأنه حيثما أمسى وأصبح وجد أمامه ثلاث نخلات هنا وبضعة أخصاص هناك ، وماء فى الوسط وشاطئين على الجانبين .. وهذا أسلوب مارك توين حين يريد أن يصف الحياة التى رزحت بالزمان بعد الزمان فى غير تبديل ولا تحويل .

وان القارىء ليفهم مارك توين حق فهمه ويدرك تعليقات الشارحين له حق ادراكها اذا قرأ العبارة وأعاد ترجمتها لنفسه على هذا الأسلوب : كلمة بلسان الضاحك المازح — وكلمة بلسان الجاد الصارم الذى اهتم بالأمر فبلغ به غاية الاهتمام .

عباس محمود العقاد